مأزق الصهيونية بين الانقسام الداخلي وصعود المقاومة الفلسطينية

The dilemma of Zionism between internal division and the rise of Palestinian resistance

د. فؤاد بلمودن[1]

phD. Fouad Belmoudden

ملخص:

يتناول هذا المقال توصيف المأزق السياسي والوجودي للحركة الصهيونية، وما تعانيه من مشكلات تتجاوز حدود الذات المتشظية والمنقسمة على نفسها بفعل عوامل شتى، أفضت إلى حالة من التآكل الإيديولوجي وعدم اليقين بجدوى المشروع الصهيوني لدى الجيل الجديد داخل إسرائيل، في مقابل صعود المقاومة الفلسطينية وتمكنها من إعادة القضية الفلسطينية إلى دائرة الاهتمام الإقليمي والعالمي.

[**الكلمات المفاتيح:** القضية الفلسطينية – الصهيونية – المقاومة - الانقسام]

Abstract:

This article examines the political and existential challenges faced by the Zionist movement, highlighting issues that transcend the fragmented and divided self-due to various factors. These challenges have resulted in ideological erosion and growing skepticism about the feasibility of the Zionist project among the new generation in Israel. In contrast, the article also discusses the rise of Palestinian resistance and its success in bringing the Palestinian issue back to the forefront of regional and global attention.

[**Keywords:** The Palestinian issue - Zionism - resistance - division].

(1) أستاذ باحث في قضايا الفكر الإسلامي المعاصر والمقاصد الشرعية.



مقدمة

شكل قيام دولة إسرائيل بفلسطين منذ سنة 1948 تحديا أساسيا للمجتمعات العربية والإسلامية، أدى إلى إرباك جهودها النهضوية وتعطيل مسيرتها التنموية، وفرض عليها مواجهة غير متكافئة، ولم يتوقف التهديد الصهيوني عند حدود التحدي العسكري الاستعماري، بل إن الكيان الجديد الذي تم زرعه في قلب الأمة الإسلامية اضطلع بأدوار رئيسة في تأزيم الحياة السياسية للعالم العربي والإسلامي، ولعل تأثير ذلك بارز في الحالة العامة التي تعيشها دول الطوق، حيث انعكس ذلك على البنى السوسيوسياسية والاقتصادية والثقافية والفكرية لهذه البلدان تحديدا، فتم تأجيل وتعطيل الكثير من الاستحقاقات النهضوية والتنموية الأساسية منذ منتصف القرن الماضي، بدعوى التعبئة العامة لمواجهة الاحتلال الصهيوني، ما أدى إلى موجة من الانقلابات العسكرية، وعسكرة الحياة العامة، واعتبرت الديمقراطية والحريات العامة قضية ثانوية، كما انخرط الفكر العربي القومي والعلماني في عملية التسويغ لهذا الواقع السياسي. والذي يؤكد أن الصهيونية أوسع من أن تكون مجرد تحد عسكري بحث، يتمثل في ما أحدثته في المنظومة الثقافية والسياسية العربية بعد ما يسمى بالربيع العربي من اختراقات صادمة سياسيا وثقافيا وإعلاميا. وكل هذه المؤشرات تدل على أن المشروع الصهيوني لا يشكل تحديا احتلاليا فقط للشعب الفلسطيني بقدر ما يشكل عائقا حقيقيا أمام الجهود النهضوية العربية المعاصرة.

وبالعودة لسيرورة الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، فقد تم إحلال اليهود بأرض فلسطين التاريخية عبر موجات مكثفة ومتتالية من الهجرات الاستيطانية بمساعدة القوى الغربية الاستعمارية وعلى رأسها بريطانيا، صاحب ذلك عمليات ترحيل قسري للشعب الفلسطيني، وطرده من أرضه إلى بلدان الطوق، ليتحول نصف الفلسطينيين إلى لاجئين ينشدون العودة إلى الوطن.

ولم تزد المحاولات العسكرية العربية الهادفة لتحرير فلسطين الكيان الصهيوني إلا توسعا، بل أنتجت واقعا جديدا اصطلح عليه في الأدبيات العربية بالنكبة أو النكسة، نكبة 1948 التي هُجِّر بموجبها الفلسطينيون، وتم إعلان قيام دولة إسرائيل، وانتكاسة 1967، التي ترتب عنها احتلال الصهاينة للجولان السوري والقدس والضفة الغربية وقطاع غزة وشبه جزيرة سيناء المصرية.

وقد نتج عن ذلك ترسيخ أسطورة الجيش الذي لا يقهر، ولم يخفف من وهجها سوى العبور المصري إلى سيناء، وتوجيه ضربة عسكرية مباغتة للصهاينة سنة 1973، رغم ما تلا ذلك من تطورات سياسية غير منتظرة، لم تستثمر إيجابا هذا الإنجاز العسكري، تمثلت في توقيع اتفاقية السلام بين مصر والكيان الإسرائيلي، ليتم بموجب ذلك، تحييد مصر من دائرة الصراع، ثم تلا ذلك اتفاقية وادي عربة مع الأردن، ثم اتفاقية أوسلو مع السلطة الفلسطينية. وإذا كان النظام الرسمي العربي قد استقال مؤقتا من تبعات الصراع مع إسرائيل، فإن جهود المقاومة الشعبية الفلسطينية لم تتوقف وتوجت بالانتفاضة الفلسطينية الأولى سنة 1987 وتصعيد الفعل المقاوم وصولا إلى غزوة طوفان الأقصى في السابع من أكتوبر 2023 التي أحدثت زلزالا عالميا وأدخلت المنطقة في واقع جديد، وأعادت للقضية الفلسطينية وهجها وألقها القديم، لتعود مصدر إلهام لكل المؤمنين بالحرية والكرامة والإنسانية، ولتشعر الكيان الاستعماري بالتهديد الوجودي، إلى جانب ما يعانيه من تحديات داخلية متعاظمة.

ونركز في هذه الدراسة على مأزق الصهيونية في ظل تنامي الانقسامات الداخلية على ضوء الصعود القوي للمقاومة الفلسطينية الباسلة، وأثر ذلك على مستقبل الكيان الاستعماري الإسرائيلي.

أولا. استمرار المقاومة الفلسطينية: من الانتفاضة إلى طوفان الأقصى

لم يتوقف كفاح الشعب الفلسطيني في سبيل استعادة حريته واستقلاله منذ فترة الانتداب البريطاني إلى قيام الدولة الصهيونية وانسحاب بريطانيا سنة 1948، واستمرت مقاومته حتى اندلاع شرارة الانتفاضة الفلسطينية الأولى من مخيم جباليا سنة 1987 إثر دهس مستوطن يهودي بشاحنته عمالا فلسطينيين قرب معبر إيرز، واستمرت انتفاضة أطفال الحجارة لأكثر من أربع سنوات ولم تهدأ إلا بعد توقيع اتفاقية أوسلو سنة 1991، ثم الانتفاضة الثانية التي اندلعت سنة 2000 بعد اقتحام زعيم المعارضة الإسرائيلية آنذاك أرييل شارون لباحات المسجد الأقصى، واستمرت زهاء خمس سنوات، تكبد فيها الكيان الصهيوني خسائر غير مسبوقة.

لقد أدت الانتفاضات الفلسطينية المتتالية إلى زيادة الوعي التحرري، وإدراك حقيقة الصراع الفلسطيني الصهيوني، وازداد شعور المسلمين في مختلف بلدان العالم وقاراته

بعمق الروابط الدينية التي تؤلف شعوب العالم الإسلامي وأقطاره. فإذا كان حرق المسجد الأقصى سنة 1969 سببا في تأسيس منظمة المؤتمر الإسلامي التي تحولت لاحقا إلى منظمة التعاون الإسلامي، فإن الانتفاضة كانت سببا في يقظة شعبية شاملة في العالم العربي والإسلامي وداخل المجتمع الفلسطيني نفسه، يتمثل ذلك في «تأثر فلسطيني 48 بالانتفاضة والمقاومة الباسلة والتضحيات التي يقدمها الفلسطينيون كل يوم، مما زاد من تخوف الإسرائيليين من احتمال تكون جيوب للمقاومة وخلايا دعم داخل الخط الأخضر، تستعين بهم المقاومة للضرب داخل العمق الإسرائيلي، تمهيدا للانتقال التدريجي لأعمال المقاومة في الأحياء الإسرائيلية، مما يشكل تحديا أمنيا خطيرا لا يتحمله شعبهم الجبان، الذي يرهن بقاءه على هذه الأرض بالاستقرار الأمني والرفاه الاجتماعي.»[1]

إن التطورات الحاصلة في العقود الأخيرة وعلى رأسها الانتفاضة الفلسطينية وتوحد الشعور الفلسطيني بين فلسطيني ما يسمى بالخط الأخضر -الذي احتلته الجماعات الصهيونية سنة 1948- وفلسطيني الضفة وقطاع غزة، وفلسطيني الشتات، بضرورة النضال من أجل الاستقلال، مدعوما بشعور قوي لدى الشعوب الإسلامية بضرورة دعم الشعب الفلسطيني، لتحقيق استقلاله، لاسيما مع تطور قدرات المقاومة وتحولها إلى تبني استراتيجية هجومية بعد 7 أكتوبر، إثر عملية طوفان الأقصى التي ألحقت بالكيان الإسرائيلي وداعميه هزيمة نكراء، تنطوي على أضرار استراتيجية، لا يمكن محوها بآلاف المذابح والمجازر التي يتم ارتكابها يوميا في حق المدنيين العزل في قطاع غزة تحديدا، ومدن ومخيمات الضفة الفلسطينية عموما،[2] يتم ذلك بالموازاة مع حالة غير مسبوقة من الانقسام السياسي الحاد داخل المجتمع الصهيوني، وكل هذه التطورات والعوامل باتت تعزّز من الحديث عن مأزق الصهيونية وسقوط إسرائيل، وقد خرج ذلك من حيز الأماني والخطابات المعيارية إلى الدراسات العلمية، التي تتناول بالرصد والتحليل حالة المجتمع الصهيوني ونقاط ضعفه وقوته، ومكامن الخلل فيه، وسبل هزيمته ونقض بنيانه.

(1) عبد الحميد بن سالم، مشروع الشرق الأوسط الكبير وتداعياته على المنطقة، مستقبل الحركة الإسلامية ونهاية إسرائيل، دار الخلدونية، الجزائر، طبعة 2005، ص94.

(2) إلى حد كتابة هذه السطور في فاتح ماي 2024 بلغ عدد ضحايا الإبادة الجماعية بغزة ما يناهز 35 ألف شهيد و78 ألف جريح وآلاف المفقودين.

ثانيا: الانقسام الداخلي للمجتمع الصهيوني.

إن دراسة الواقع السياسي والاجتماعي الإسرائيلي، يثبت -بخلاف المتوقع- أن الأمر لا يتعلق بشعب واحد بل بشعوب مختلفة ومتنافرة، ومتصارعة فيما بينها، ولا تجتمع إلا بقدر ما توحدها المصلحة ضد العدو الخارجي المشترك بينها، وهم العرب، وإذا كان «الصراع بين العلمانيين اليساريين والأرثوذكس المتدينين في إسرائيل اليوم، هو بمثابة الصراع والانشقاق الرئيسي الذي تتفرع منه جميع الانشقاقات الأخرى، كما يرى شلومو بن عامي[1]... أما دوائر الصراع الأخرى، فيلخصها الباحث الإسرائيلي سمحى لانداو في عدة إطارات أو عناوين كالتالي:

- صراع اليمين ضد اليسار (عوامل سياسية).
- صراع اليهود من أصل شرقي - سفارديم - ضد اليهود من أصل غربي - أشكيناز - (عوامل طائفية).
- صراع الأغنياء في مواجهة الجوعى أو الفقراء (صراع طبقي)».[2]

هذا بالإضافة إلى تفاصيل أخرى تزيد المشهد تعقيدا مثل تزايد أعداد اليهود الروس الذين يناهزون المليون، حيث ينظر إليهم بريبة وشك باعتبارهم متطفلين على اليهودية، ويعتقَد أن الكثير منهم زوروا هوياتهم اليهودية للهروب من الفقر في بلدهم الأصلي، وكذلك يهود الفلاشا. وهو ما يزكي القول بأن ما يوجد في إسرائيل ليس شعبا واحدا، بل شعوب غير متجانسة لكل منها هويته ومعتقداته الخاصة.

يلخص عبد الغني عاطف أوجه الصراع داخل الكيان الإسرائيلي بأن«ست ثقافات مختلفة تتصارع في إسرائيل الآن ما بين يهود شرقيين وغربيين، ويهود أرثوذكس وعلمانيين، ويهود روس وعرب، يحملون الهوية الإسرائيلية، والأخطر من ذلك أن القوى الدينية بدأت تنشئ طلائع عسكرية ذات طابع ديني، بل وأقامت كتلة عسكرية دينية، يتخرج فيها قيادات يتدفقون على الوحدات الخاصة بالجيش الإسرائيلي... وفي النهاية فإن كل الطرق تؤدي إلى الانفجار، فثقوب النسيج المجتمعي تتسع بفعل تنامي مساحات التطرف وازدياد

(1) أستاذ بجامعة تل أبيب وأحد أعضاء الكنيست في دورته الرابعة عشر

(2) عبد الغني عاطف، صدام الأصوليات، نهاية إسرائيل أو نهاية العالم، مطبوعات دار الخيال، بيروت، الطبعة الأولى، 2000، ص128.

معدلات الجريمة، ويلاحظ المراقبون أن التحركات الاجتماعية والسلوكية اليومية للمجتمع الإسرائيلي، تتحشد كقنبلة موقوتة قابلة للانفجار في أي لحظة».[1]

إن الانقسام الإثني الحاصل بين يهود إسرائيل، إلى يهود شرقيين كانوا يعيشون في آسيا وإفريقيا منذ ما قبل الميلاد ويعرفون بيهود السفارديم أو السفارد، نسبة إلى إسبانيا، لأن أكثرهم ممن فروا من إسبانيا بعد سقوط الحكم الإسلامي واستوطنوا بعدها المغرب والأراضي العثمانية، وقد شكلوا الدعامة الأساسية لقيام إسرائيل. ويهود غربيين يرجع أصلهم إلى أيام الإمبراطورية الرومانية وتوسعها في أوربا والمناطق السلافية، وقد تبنى هؤلاء في القرون الوسطى لغة (البيديش) وهي خليط من الألمانية والعبرية، وأصبحوا يعرفون بالأشكيناز أي الألمان وهم يمثلون غالبية سكان إسرائيل، ومنهم يتشكل السواد الأعظم من يهود أمريكا الشمالية والجنوبية. وتندرج تحته تقسيمات ما تزال راسخة مثل يهود المغرب ويهود العراق ويهود اليمن ويهود بولندا وبولونيا وألمانيا وروسيا...

ويرسخ هذا الانقسام الإثني بدوره انقساما آخر هو الانقسام الديني، فـ«إذا كانت الأرثوذكسية اليهودية تشكل قاسما بين اليهود المتدينين الشرقيين، واليهود المتدينين الأشكيناز الأرثوذكسيين، فإن الاختلاف أو الانقسام من ناحية دينية واقع لا يمكن نفيه، أو إنهاؤه في عصرنا الراهن. فلكل من الطائفتين المتدينتين حاخامها الأكبر، ومؤسساتها الدينية الخاصة بها. هكذا كانوا خارج فلسطين قبل نشوء الحركة الصهيونية وظلوا على هذه الحال بعد نشوئها أيضا. وقد ترسخ هذا الانقسام الديني وليس الإثني فحسب في إسرائيل نفسها، حين طلب اليهود الأشكيناز المتدينون من السلطات الانتدابية البريطانية عام 1921 الموافقة على اختيارهم لحاخامهم الأكبر، وعدم اختيار الحاخام الأكبر الشرقي (سفارادي) حاخاما تسري سلطاته الدينية عليهم، كما كان الأمر سائدا في فلسطين أثناء الحكم العثماني فيها، وبدعم من الحركة الصهيونية التي يسطر عليها الأشكيناز اليهود، وافقت سلطات الانتداب البريطاني أن يكون لكل طائفة حاخامها الأكبر، ومؤسساتها الدينية الخاصة».[2]

(1) عبد الغني عاطف، صدام الأصوليات، نهاية إسرائيل أو نهاية العالم، ص129.

(2) حسين الحلبي، مأزق الصهيونية وأزمة الواقع الإسرائيلي، دار الحياة للنشر، السعودية، ط1، 2014، ص48-49.

غير أن السيطرة السياسية للأشكناز على دولة إسرائيل، تمكنت من فرض حاخامها الأكبر الأشكنازي حاخاما لكل إسرائيل، مع السماح للحاخام الأكبر الشرقي برعاية الخدمات الدينية لطائفته وفق ما تقتضيه شرائعهم وأعرافهم. «وفي ذلك الوقت، أحس اليهود الشرقيون المتدينون وغير المتدينين بالخوف من سيطرة المؤسسة الدينية الأشكنازية، ولذلك أخذوا يرتبطون أكثر فأكثر بحاخامهم الأكبر وجمعياتهم الدينية الخاصة.

والاختلاف الجوهري الديني القائم بين الطائفتين يكمن في نهج العبادة الشرقي المختلف عن الغربي، وكذلك في لغة العبادة نفسها، ناهيك عن تقديس بعض الحاخامين الشرقيين ممن لا يعترف بهم الحاخامون الأشكناز، ولا يقرون بمعجزاتهم أو حسناتهم على اليهود».(1)

وإذا كانت الأرثوذكسية هي القاسم المشترك بين الطوائف الدينية اليهودية بإسرائيل، فإنها تواجه تحديا آخر هو اليهودية الإصلاحية واليهودية المحافظة التي تشكل غالبية يهود الخارج، لاسيما بالولايات المتحدة الأمريكية، ويعتبر اليهود الإصلاحيون والمحافظون أن التوراة ليست مرسلة من الإله، بل هي مجرد أقوال حكيمة وأساطير شعبية، ويقرون بترسيم النساء حاخامات، ويبيحون الشذوذ الجنسي، بل رسموا بعض الشاذين والسحاقيات حاخامات في الولايات المتحدة وبريطانيا، كما يخضعون كل الآراء والمعتقدات الدينية لميزان العقل، ولذلك يصنفون من المذاهب اللبرالية المتحررة من القيود التشريعية والأخلاقية لليهودية الأرثوذكسية. وقد بلغ الصراع ذروته بين المذهب الأرثوذكسي والمذهبين الإصلاحي والمحافظ منذ سنة 1997 «حين تقدمت الأحزاب الدينية اليهودية الأورثوذكسية في إسرائيل ب 23 مقعدا في البرلمان، مستغلة نفوذها المتزايد بمشروع قانون للبرلمان (الكنيست الإسرائيلي)، يدعو إلى اعتبار شرائع المذهب اليهودي الأورثوذكسي في التهويد والزواج والطلاق، والشؤون المدنية اليهودية، بمثابة الأساس التشريعي الديني الوحيد لليهود أينما كانوا في إسرائيل أو خارجها، واعتمادها حكما فصلا في تحديد من هو اليهودي...وقد أقر البرلمان (الكنيست) مشروع القرار هذا بالقراءة الأولى بأغلبية الأصوات، حيث دعم الصهيونيون في الليكود والأحزاب الدينية المشاركة معهم بالسلطة هذا القرار تجنبا لانفراط الائتلاف الحكومي».(2)

غير أن البرلمان عاد ليجمد الاستمرار بالتصويت على مشروع القرار، الذي من شأنه أن يحدث انقساما خطيرا بين اليهود، ويجعل أكثر من خمسة ملايين أمريكي غير معترف

(1) حسين الحلبي، مأزق الصهيونية وأزمة الواقع الإسرائيلي، ص50.

(2) المرجع نفسه، ص56-57.

بيهوديتهم من قبل إسرائيل، كما سيهدد الدعم الأمريكي لإسرائيل، «وقد اعترف زعيم (أغودات يسرائيل) اليهودي الأرثوذكسي الحرادي الحاخام موشيه شارار، بأن قادة اليهود الإصلاحيين في الولايات المتحدة أخذوا يضغطون بشدة على أعضاء في مجلس الشيوخ الأمريكي، وفي مجلس النواب لتقليص المساعدات المقدمة لإسرائيل، إذا صادق البرلمان الإسرائيلي على مشروع قرار اليهود المتدينين الأرثوذكس بشكل حاسم، ويعتبر اليهود الإصلاحيون والمحافظون من المتسامحين كثيرا مع اليهود العلمانيين الصهيونيين اللبراليين غير المتدينين، فهم أقرب إليهم من أي يهودي آخر، ولذلك لا يوجد بين هذه الفئات خلافات جوهرية باستثناء أن الإصلاحيين والمحافظين لا يؤمنون كثيرا بالهجرة إلى إسرائيل، أو العيش الدائم فيها، ولذلك تغلب المصلحة الاقتصادية النفعية في علاقاتهم معهم، ومع إسرائيل على أية مصلحة بشكل عام».[1]

غير أن انقساما آخر يهدد الكيان الإسرائيلي ويتمثل في الانقسام بين المتدينين الصهيونيين المتحمسين لإقامة دولة إسرائيل والهجرة إليها، والمتدينين الحراديم الذين يرفضون الصهيونية، لكونها لا تشكل خلاصا لإسرائيل، بل الخلاص الحقيقي كما تقره التوراة والتلمود، هو الخلاص المسيحاني أي انتظار المسيح، لأن تأسيس مملكة الرب الموعودة لا يمكن أن يتم بوسائل بشرية، مهما استخدم فيها من مال وسلاح، و«تبقى نقطة الخلاف الجوهرية بين المتدينين الحراديم والفكر الصهيوني، هي أن الدعوة الصهيونية، واليهودية كتوراة وتلمود، لا يمكن أن يتفقا أو ينسجما، لأن الصهيونية تعتبر تمردا على رب إسرائيل، وخيانة لشعبه المختار، وأن اليهودي الصالح لا يمكن أن يكون صهيونيا، والصهيوني لا يمكن أن يكون يهوديا صالحا».[2]

ورغم التراجعات التي عرفها الحراديم بعد قيام دولة إسرائيل وبعد انتصار سنة 1967 أمام نفوذ الحركة الصهيونية، إلا أنهم لازالوا يشكلون تناقضا رئيسيا من بين تناقضات إسرائيل التي لا تحصى.

(1) حسين الحلبي، مأزق الصهيونية وأزمة الواقع الإسرائيلي، ص59-60.

(2) المرجع نفسه، ص65.

ثالثا. تأثير الانقسام الداخلي على الهجرة والاستيطان

كل الأوطان تسمد قوتها من داخل مجتمعها إلا الكيان الإسرائيلي، فإنه يستمد مصادر قوته من خارجه، من خلال الدعم العالمي والغربي، ومن الهجرة والاستيطان، فلا وجود لإسرائيل بدون هجرة واستيطان، حيث يتم استقدام اليهود من مختلف دول العالم ليتم توطينهم وإحلالهم بالأرض التي تم تهجير الفلسطينيين منها قسرا، والاستيطان ليس مجرد عملية إسكان للمهاجرين اليهود بل إنه استراتيجية عسكرية يتم بموجبها تحصين الأرض ضد أي عودة ممكنة للسكان الأصليين بعد قتلهم وطردهم، فالمستوطن هو فلاح أو عامل وجندي متأهب بالسلاح دائما ومستعد للفتك بالفلسطينيين، ولذلك ذكر بن غوريون في مذكراته سبب إرسال جنود من الجهة الجنوبية ليستوطنوا الساحل الشمالي لفلسطين سنة 1949 أن «للاستيطان قيمة عسكرية».[1]

ولعل جزءا من تأثير اليهود المعادين للأرثوذكس في الخارج وراء محدودية الهجرة اليهودية قياسا لما هو متوقع، حيث يرفض غالبية يهود أمريكا الشمالية وأروبا الغربية الهجرة إلى الكيان الإسرائيلي، ويفضلون العيش في أوطانهم الأصلية، بينما استمر تدفق المهاجرين من روسيا وبلدان الشرق الأوربي، إلى أن نضبت مصادر الهجرة النشطة من هذه البلدان، ومن الملاحظات التي يمكن تسجيلها في مجال الحديث عن الهجرة الاستيطانية:

- أن الولايات المتحدة شكلت وجهة مغرية للهجرة اليهودية من كل أنحاء العالم، تفوق مستوى الهجرة اليهودية لفلسطين، «ومن المعروف أن الآلاف القليلة التي اتجهت إلى فلسطين للاستيطان فعلت ذلك، لأن أبواب الولايات المتحدة كانت موصدة دونها، ولكن بعد أن فتحت الأبواب منذ الستينات، تتجه الهجرة اليهودية قدما نحو المنفى البابلي الجديد اللذيذ.
- يلاحظ التناقص المستمر في أعداد أعضاء الأقليات اليهودية في العالم خارج إسرائيل، فيما يسمى بظاهرة (موت الشعب اليهودي)، بسبب الاندماج والزواج المختلط والعزوف عن الزواج والإنجاب وانخفاض نسبة الخصوبة.

(1) دافيد بن غوريون، يوميات الحرب 1948-1949، ترجمة: سمير جبور، مركز الدراسات الفلسطينية، بيروت، د1، 1993، ص 610.

- لم يهاجر أعضاء الجماعات اليهودية إلى الدولة الصهيونية بأعداد غفيرة، كما كان متوقعا منهم، فهم صهاينة توطينيون، يتحدثون عن الصهيونية بحماس ولكنهم لا يهاجرون».[1] ومن ثم نكون أمام صهيونيتين لا صهيونية واحدة: «الأولى: هي الصهيونية الاستيطانية، وهي أن يترك اليهودي بلده ويذهب إلى فلسطين ليصبح مستوطنا صهيونيا فيها، أما الثانية: فهي الصهيونية التوطينية، وهي أنه يكتفي اليهودي الذي يسمي نفسه صهيونيا بأن يعطي الدعم المالي والسياسي للمنظمة الصهيونية لتوطين يهود آخرين، وصهيونية العالم الغربي صهيونية توطينية، فشرق أوربا كان دائما مصدر المادة البشرية الاستيطانية، ومع جفاف ينابيعها، فإن أزمة الاستيطان ستتفاقم في الدولة الصهيونية».[2]

ومع تراجع الهجرة اليهودية للكيان الإسرائيلي تزداد الأزمة السكانية حدة مع اتساع ظاهرة النزوح، «إذ يلاحظ أن أعداد النازحين آخذة في التزايد في الآونة الأخيرة. وقد بلغ عددهم ما يزيد على 700 ألف (أو أكثر حسب الإحصائيات غير الرسمية)، وقد أصبح قرار النزوح مقبولا اجتماعيا، ويظهر على التلفزيون الإسرائيلي بعض النازحين ليتحدثوا عن قصص نجاحهم في الولايات المتحدة، كما تظهر في الصحف الإسرائيلية إعلانات عن إسرائيليين يودون بيع شققهم استعدادا للهجرة، وهذه أمور كانت في الماضي تتم سرا... والأزمة السكانية تثير قضية الهوية اليهودية، ولكنها تثير أيضا قضية الاستيطان وبشكل مباشر. فالصهاينة يصرحون كل يوم بعزمهم على إنشاء المستوطنات، ولكن المستوطنات في الضفة الغربية قائمة وتزداد عددا وحجما، ولكن عدد المستوطنين فيها لم يزد بعد مرور ما يزيد عن ثلاثين عاما عن 120 - 140 ألف، وهو عدد أقل من الزيادة الطبيعية السنوية للفلسطينيين العرب في تلك المنطقة».[3]

ولعل إدراك قادة الكيان الإسرائيلي لحجم هذه المخاطر هو ما دفعهم لفتح باب الهجرة حتى لليهود المزيفين أو من يشك في هويتهم اليهودية، بل حتى لغير اليهود من الدول العربية التي انخرطت في مسلسل التطبيع معهم ضدا على إرادة شعوبها، لكن تنامي الهجرة

(1) عبد الوهاب المسيري، مقدمة لدراسة الصراع العربي الإسرائيلي، جذوره ومساره ومستقبله، دار الفكر، دمشق سورية، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان،2002، ص167.

(2) عبد الوهاب المسيري، انهيار إسرائيل من الداخل، دار المعارف، القاهرة، سلسلة إقرأ، ط1، 1998، ص29.

(3) عبد الوهاب المسيري، مقدمة لدراسة الصراع العربي الإسرائيلي، جذوره ومساره ومستقبله، ص167-168.

العكسية لليهود نحو أوربا وأمريكا بالتزامن مع تصاعد المقاومة الفلسطينية تعد ظاهرة حقيقية وتحديا وجوديا خطيرا يهدد الكيان الإسرائيلي على المدى القريب والمتوسط.(1)

رابعا. أثر الانقسام في تآكل الإيديولوجية الصهيونية وفشلها.

بالإضافة إلى الهجرة المضادة إلى خارج الكيان الإسرائيلي تنضاف معضلة الفرار من الخدمة العسكرية التي استفحلت في العقود الأخيرة في صفوف الشباب الإسرائيلي، «فأشار إسحاق مردخاي(2) إلى أنه قد طرأ انخفاض حاد على مستوى الاندفاع والرغبة القتالية في صفوف الشباب الإسرائيلي. وفي إحصاء عام 2000 تساءل أحد كبار الضباط عن شرعية قيام الجيش بتجنيد إلزامي، بينما 20% من الشباب لا يتم تجنيدهم، وحوالي 20-25% يهربون أثناء الخدمة، (ملحق هآرتس 26 مايو 2000)، وفي إحدى استطلاعات الرأي صرح ثلث الشباب الإسرائيلي، أنه إن أتيحت لهم الفرصة أن يتحاشوا الخدمة العسكرية الإجبارية (التي تستغرق ثلاث سنوات) فعلوا ذلك... وأثناء الصدام الذي وقع بين الجيش الإسرائيلي وسكان نابلس في سبتمبر 1996، استدعت إحدى فرق الاحتياط الجنود التابعين لها، والبالغ عددهم 340، فلم يحضر سوى 60، ولم يبق منهم سوى ثلاثين، وقد رفض أحدهم الذهاب للضفة الغربية (عدد المجندين الذين يرغبون في الخدمة في الأحداث القتالية يتراجع ليصل إلى 5% من عدد المجندين)».(3)

والمفارقة التي تستوجب الوقوف عندها، أن الجيل الجديد المولود بما يسمى: (أرض إسرائيل) الذي يرفض غالبيته الخدمة العسكرية، هم جيل أكثر إيمانا بالقوة العسكرية طريقة لإخضاع الفلسطينيين وطردهم من بيوتهم بالقوة، وإحلال المستوطنين مكانهم.

ويرجع البعض تزايد الرغبة في النزوح والفرار من التجنيد إلى التآكل الذي تعيشه الإيديولوجية الصهيونية ذاتها، لا سيما بعد خيبة أملهم في استمالة غالبية يهود العالم بالهجرة إلى إسرائيل، وفشلهم في إخضاع الشعب الفلسطيني وإنهاء وجوده، ومع الصعود

---

(1) حسب بيانات دائرة الإحصاء المركزية الإسرائيلية بلغ عدد حاملي الجنسية الإسرائيلية الذين غادروا سنة 2000 إلى 756 ألفا، وبلغوا في نهاية سنة 2022 إلى 900 ألف، بينما تشير تقارير إعلامية عدة غير رسمية إلى ارتفاع غير مسبوق في أعداد المغادرين بعد عملية طوفان الأقصى.

(2) سياسي وجنرال صهيوني من مواليد 1944 بكوردستان العراق تقلد منصب وزير الدفاع والنقل سنة 1996 إلى 2001، اعتزل العمل السياسي بعد اكتشاف اعتداءات جنسية نسبت إليه عندما كان في الجيش

(3) عبد الوهاب المسيري، انهيار إسرائيل من الداخل، ص158-159.

القوي للحركة الإسلامية المقاومة، وانبعاث الانتفاضة الفلسطينية الأولى أواخر الثمانينات، والثانية سنة 2000، وهو ما أثبت عدم قدرة الكيان الصهيوني على تحقيق الأمن لسكانه من جهة، وعدم قدرته على شرعنة وجوده بالتحول إلى كيان طبيعي في المنطقة، يعتمد على نفسه، وليس كيانا تبعيا يعتمد على المعونات الغربية والدعم الأمريكي.

إن الفشل والتآكل الحاصل في الإديولوجية الصهيونية يولد في نظر المسيري أزمة المعنى «وعادة ما تؤدي أزمة المعنى إلى إحساس بالعدمية، يحاول الإنسان التغلب عليه من خلال الاستغراق في عنصر مادي بشكل كامل (شرب المخدرات-الإباحية-الاستهلاك)، يبحث الإنسان من خلاله عن قدر من الثبات والتوازن، إن لم يكن من اليقين، لكن ما يحدث هو العكس إذ أن تصاعد الاستهلاك وإغراق الحواس فيه، يزيد أزمة المعنى بدلا من تهدئتها، ويزداد بذلك تآكل الإيديولوجية وتقويضها».[1]

لقد تغيرت الأنماط الإدراكية والمعيشية داخل المجتمع الإسرائيلي، ليتراجع نموذج الكيبوتسنيك المتقشف المحارب، الذي يحمل المحراث بيد والبندقية باليد الأخرى، وأصبح التوجه نحو اللذة والاستهلاك هو الاتجاه العام للمستوطنين اليهود، وهي على العموم ظاهرة مرتبطة بالعولمة اللبرالية وتعميم نمط العيش الأمريكي ونموذجه الاستهلاكي الباذخ.

ولعل من المتغيرات الخطيرة التي تقض مضاجع قادة الكيان الإسرائيلي، هو تزايد التنكر للفكر الصهيوني ولإنجازات الحركة الصهيونية، «يقول البروفسور (أمنون روبنشتاين)[2]: غريبة دروب التاريخ، فبمناسبة مائة عام على إنشاء الحركة الصهيونية الهرتزلية، وبعد إنجازاتها الكبيرة، خصوصا تحقيق هجرة يهود الاتحاد السوفيتي سابقا إلى إسرائيل، ها نحن نشهد من يهاجمها بشدة لا سابقة لها من قلب بيتها. فالهجوم على الصهيونية يُشَن من ثلاثة اتجاهات:

1. من معسكر اليهود المتدينين القوميين، الذين يرتدون ثياب الصهيونية، لكنهم كافرون بأساسها البشري.
2. من معسكر المتدينين اليهود (الحراديم) المعادين للصهيونية، الذين تضاعف تأثيرهم الانتخابي كثيرا.

(1) عبد الوهاب المسيري، انهيار إسرائيل من الداخل، ص 170.
(2) مفكر صهيوني ووزير سابق للعلوم والتعليم وأحد زعماء ميرتيس.

3. من معسكر مفكري (ما بعد الصهيونية Post Zionism)...

ويعتبر أتباع مفهوم ما بعد الصهيونية، كما يقول روبنشتاين، أن الصهيونية قد أنجزت الآن مشروعها، ولم يعد ثمة حاجة إليها، وهم لا يدينونها على ولادتها غير التقليدية، كما لا يرفضون عدالة تطلعاتها، وكفاحها منذ نشوئها...»[1]

ولا يخفي أصحاب هذا الاتجاه تناقضهم الرئيسي مع الإيديولوجية الصهيونية، التي تجعل من إسرائيل دولة يهودية، لما في ذلك من إضرار بالحقوق المتساوية لعرب إسرائيل، أو بحق العودة للفلسطينيين عند من يدعم هذا الحق منهم. غير أن مفكري ما بعد الصهيونية، بخلاف معسكر المتدينين الحراديم، لا يحظون بمجتمع انتخابي، وليس لهم تأثير على جمهور الناخبين اليهود.

خامسا. أثر التناقضات الداخلية في تفكك الكيان الصهيوني:

إن كل هذه التناقضات الداخلية المذكورة تؤكد أن إسرائيل تعيش مأزقا حقيقيا، ولم تستطع لحد الآن أن تحقق أهداف الحركة الصهيونية. ويرى يعقوب ريختر[2] أنه «تصورَ هرتزل والحركة الصهيونية منذ تأسيسها رؤية دولة إسرائيل كدولة أوربية عصرية، يسكنها مواطنون أوربيون يهود بروح توراتية رومانطيقية، لكن الواقع الإسرائيلي يختلف كثيرا عما تصوروه، فالشعب في إسرائيل غير متجانس، والروح الأوربية ذات الرومانس التوراتي غير موجودة، والموجود في إسرائيل هو سكان من أنواع وألوان متعددة، وفلسطينيين مسلمين ومسيحيين. وعلى أية حال، رغم أن هذا الهدف الصهيوني مازال تحقيقه ناقصا ومشوها، إلا أنه أصبح واقعا. من كل هذا يتبين أن المشروع الصهيوني لم يحقق أهدافه الكاملة حتى الآن، رغم مرور مائة سنة على الإعلان عنه، وتأسيس فكره وحركته المعاصرتين، ورغم مرور خمسين سنة على تأسيس دولته الصهيونية في فلسطين».[3]

ويعد المسيري من أكثر الباحثين والدارسين الذين خبروا الظاهرة اليهودية والصهيونية وتطورها التاريخي، وقد قدم نموذجا تفسيريا جديدا، يرتكز على اعتبار الجماعات اليهودية

(1) عبد الوهاب المسيري، انهيار إسرائيل من الداخل، ص94-95.

(2) يعقوب ريختر مهندس معماري صهيوني حائز على جائزة إسرائيل في هندسة المدن سنة 1972، وأحد المخططين الأساسيين في حركة العمران الاستيطاني للمدن بفلسطين المحتلة، توفي سنة 2001.

(3) تحسين الحلبي، مأزق الصهيونية وأزمة الواقع الإسرائيلي، ص182-183.

الصهيونية تضطلع بدور وظيفي أشبه بالمماليك، حيث يتم تجنيد رأس المال اليهودي، وتجنيد الرأسمال البشري في الأعمال القتالية، «ونحن نذهب إلى أن كل ما أنجزه المشروع الصهيوني، هو تجنيد الممالك المالية، ثم نقلهم بمعونة الدول الغربية إلى الشرق العربي، حيث تحولوا إلى مماليك قتالية داخل إطار الدولة الوظيفية، وأصبحت الوظيفة المالية إما ثانوية أو غير مباشرة، فهي دولة وظيفية قتالية يمكن أن نسميها دولة مملوكية. ويمكن أن نجد جوانب مملوكية عديدة للدولة الصهيونية، فعسكرة المجتمع الصهيوني ليست إلا تعبيرا عن هذه الظاهرة، كما أن الأموال الطائلة التي تصب فيه، هي تعبير آخر عن الظاهرة نفسها، والإسرائيليون يعرفون جيدا أن هذه الأموال تدفع لهم، لا حبا في التراث اليهودي أو لاهتمام العالم الغربي بهم، (وهو العالم الذي نبذهم على أية حال) وإنما نظرا لاضطلاعهم بوظيفة محددة».[1]

وتتحد سمات الدولة الوظيفية في العزلة والعجز، والحاجة الدائمة إلى دعم الدولة الراعية، مما يجعلها فاقدة للسيادة، رغم ما قد يبدو من استقلال نسبي للدولة المملوكية الوظيفية عن الدولة الراعية، فـ«الاستعمار الاستيطاني الصهيوني لا يشكل جزءا عضويا لا يتجزأ من الاستعمار الغربي، وإنما هو مجرد آلة في يد الغرب».[2]

وحسب هذا النموذج التفسيري فإن المستوطنين الصهاينة الذين غادروا بلدانهم الأصلية، وجاءوا إلى فلسطين بحثا عن هويتهم المستقلة كما وعدت بها الحركة الصهيونية، وسعيا لأن يصبح اليهود متحكمين في مصيرهم لأول مرة منذ سقوط الهيكل الثاني، أصبحوا أمام حقيقة لا تخطئها العين، وهي أنهم حبيسو دور وظيفي مملوكي استيطاني لا محيد عنه، مقابل هِبات ومساعدات سخية، «وقد أصبح حجم هذه المساعدات من الضخامة بحيث تتضاءل بجواره المساعدات التي يرسلها يهود العالم، وبالتالي يتناقص استقلالهم اليهودي المزعوم، ويتآكل تحكمهم في مصيرهم، ويزداد تورطهم ويتعمق تمزقهم، إلى أن وصل بهم الأمر إلى حد أنهم لم يبق لهم من السيادة القومية سوى رموزها اليهودية الصارخة، دون أي مضمون حقيقي... إن المجتمع الإسرائيلي لم يصبح فقط مجتمعا تابعا لا يشارك في صنع القرار، وإنما أصبح متسولا، وقد استخدم سبير صورة الشحاذة المجازية عدة مرات

(1) عبد الوهاب المسيري، الجماعات الوظيفية اليهودية: نموذج تفسيري جديد، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، 1422هـ، 2002م، ص538.

(2) المرجع نفسه، ص527.

في مقاله، ليصف المجتمع الإسرائيلي على أنه (مجتمع يمد يده لاستجداء الكرماء)، مجتمع (يأكل وجبات مجانية)، وتعتمد قائمة طعامه على الزيت الذي يقطر من الخارج... مجتمع ينفذ بكل خضوع رغبة من يقدم له الخبز، لقد أصبحت الممالك الاستيطانية إذن شنورير (متسولين) يعيشون على الحالوقة (الصدقة)».(1)

إن تحول الكيان الإسرائيلي من دولة استيطانية احتلالية تنشد السيادة وتسعى لتحقيق هوية مستقلة، إلى دولة تمارس الارتزاق والتسول على شاكلة الجماعات الوظيفية والمملوكية، بتعبير المسيري، يعتبر مأزقا حقيقيا وتناقضا خطيرا، يضاف إلى تناقضات الكيان الإسرائيلي المتعددة، التي تمت الإشارة إليها، من قبيل الانقسامات الدينية والإثنية والثقافية، والتفكك الاجتماعي الذي تعكسه حالات الطلاق المرتفعة، ونسب الأطفال العالية ممن يتعاطون المخدرات والشذوذ الجنسي، وغيرها من الآفات والأزمات التي تخترق الذات اليهودية الإسرائيلية، لكن بعد استعراض كل هذه المثالب والتناقضات هل يعني ذلك أن إسرائيل ستنهار من الداخل؟

يجيب الدكتور المسيري بالنفي القاطع للأسباب التالية:

1. مقومات حياة التجمع الصهيوني لا تنبع من داخله وإنما من خارجه، فهو مدعوم ماليا وعسكريا وسياسيا من الولايات المتحدة والعالم الغربي والجماعات اليهودية فيه، ولذا فهو لا يمكن أن ينهار من الداخل.
2. يتسم المجتمع الإسرائيلي بالشفافية، وبالتالي حينما تتضح ظواهر سلبية فإنه يقوم بدراستها والتصدي لها أو التكيف معها.
3. توجد مؤسسات ديمقراطية وعلمية، يمكن لكل قطاعات السكان في التجمع الصهيوني أن يقدموا الحلول من خلالها.
4. ثبت أن كثيرا من المجتمعات يمكنها أن تعيش في حالة أزمة، عشرات بل مئات السنين، طالما أنه لا يتحداها أحد من الخارج...»(2)

غير أن هذا لا يعني التقليل من خطورة العلل التي تعتمل في الذات الصهيونية، بل إن تضافر العوامل الخارجية مع العلل الداخلية سيكون كفيلا بانهيار وشيك للبنيان

(1) عبد الوهاب المسيري، الجماعات الوظيفية اليهودية: نموذج تفسيري جديد، ص525-526.

(2) عبد الوهاب المسيري، انهيار إسرائيل من الداخل، ص182.

الصهيوني، وهذا ما يؤكد عليه المسيري، حيث «إن القضاء على الجيب الاستيطاني لا يمكن أن يتم إلا من خلال الجهاد اليومي المستمر ضده، وما نذكره من عوامل التآكل في التجمع الصهيوني، هي عوامل يمكن توظيفها لصالحنا، كما أنها تبين لنا حدود عدونا، وأنه ليس قوة ضخمة لا تقهر، لكنها في حد ذاتها لا يمكنها أن تودي به، أو أن تؤدي إلى انهياره».[1]

ورغم القيمة العلمية التي تطبع النموذج التفسيري الذي يقدمه المسيري والتماسك النظري الذي يبدو عليه، فإن جملة من الاستشكالات والتساؤلات تطرح عليه في ضوء واقع الكيان الصهيوني والتطورات الحاصلة في علاقته بداعميه ورعاته، حيث يعتبر المسيري «الدول الاستيطانية إعادة إنتاج للجماعة الوظيفية في العصر الحديث، والدولة الصهيونية أهم مثال لذلك»[2]، لكن الواقع التاريخي يثبت أن دولا استيطانية كبرى في أمريكا الشمالية وأستراليا وعدد من دول أمريكا الجنوبية، نشأت بوصفها مستعمرات استيطانية للرجل الأوربي الأبيض تابعة لبريطانيا أو إسبانيا أو البرتغال أو فرنسا، ثم تحولت لاحقا إلى دول مستقبلة ذات سيادة عملت على تشكيل هويتها الوطنية الخاصة، ولذلك فنجاح القوى الاحتلالية الاستيطانية في تطويع بيئتها الاستعمارية وإخضاع الشعوب المحتلة مرجعه إلى عدة عوامل منها: قوة الغزاة العسكرية والاقتصادية والثقافية، وقدرة الشعوب المستعمرة على الصمود والمقاومة، وتضطلع الروح الحضارية المتشكلة من الدين والثقافة والتاريخ، والروح القومية وقيم الارتباط بالأرض عاملا أساسيا في توهج المقاومة واستمرارها، ولعل هذا هو الفارق الجوهري بين الشعوب الأصلية في أمريكا وأستراليا، وبين الشعب الفلسطيني الذي مازالت شرارة المقاومة لديه مشتعلة ومتوهجة رغم مرور ما يزيد على مائة عام من الغزو الأوربي الاستيطاني البريطاني ثم الصهيوني.

وهناك شواهد عدة تجعلنا حذرين من التماهي الكلي مع هذا النموذج التفسيري، الذي يصور المستوطنين الصهاينة والكيان الإسرائيلي مجرد أداة منفعلة بيد القوى الإمبريالية الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة، تؤدي وظيفة استراتيجية تجاه الغرب الإمبريالي، منها هذا الشعور في الغرب نفسه بسيطرة اليهود على الحياة السياسية والثقافية والإعلامية والاقتصادية بأوروبا وأمريكا، فقد تساءل هنري فورد قبل مائة عام، وقبل إعلان قيام دولة الكيان الإسرائيلي عن أسباب السيطرة اليهودية على أمريكا والعالم رغم أن عبقريتهم

(1) عبد الوهاب المسيري، انهيار إسرائيل من الداخل، ص182-183.

(2) عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهودية والصهيونية، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1993، ج1 ص296.

التاريخية كانت في الموضوعات الروحية لا العملية، وعلى مدار قرن من الزمان شوهدوا يشتغلون بفلاحة الأرض والرعي واليوم، يصبحون الحكام الحقيقيين للكرة الأرضية وهم بلا وطن، بلا حكومة، وهم مضطهدون بطريقة أو بأخرى حيثما كانوا... فكيف نشأت هذه التهمة الغربية؟ ولماذا يوجد الكثير من المبررات لها؟[1]

يتحدث جرالد ل.ك. سميث في مقدمة «اليهودي العالمي» عن ما تعرض له هنري فورد من هجوم شرس وتهديد مادي ومعنوي جسيم من قبل اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة، وكيف أخبره فورد بأنه لم يوقع بنفسه على الاعتذار الذي نشره الإعلام الأمريكي بشكل واسع عن كتابه «اليهودي العالمي، بل وقعه وكيله، وأنه يرغب في إعادة طبعه بعد مصادرته وشرائه من الأسواق من قبل اليهود، ثم يقول جرالد: «وأنا أتفق تماما مع السيد فورد في أحكامه وقناعاته التي تقول إن أمريكا والعالم بحاجة إلى معرفة الحقيقة، فالحقيقة ستحررنا من كل مكائد اليهود»[2].

ورغم مرور كل هذا الوقت الطويل على صدور كتاب فورد، مازالت حقيقة السيطرة اليهودية موضع جدل، بين الإثبات والنفي، ويزداد هذا الجدل اتساعا مع تعاظم النفوذ الصهيوني بمختلف المؤسسات الدولية وتزايد الترهيب من أي انتقاد للسلوك العسكري الصهيوني خوفا من تهمة معاداة السامية التي توجه ليس للمعادين الحقيقيين لليهودية كديانة، بل لمن ينتقدون الاحتلال الصهيوني وسياسات الإبادة والتطهير العرقي الجارية ضد الفلسطينيين منذ عقود طويلة.

والذي يبدو أن الكيان الإسرائيلي تجاوز المرحلة الوظيفية التي لازمته عند النشأة إلى مرحلة من الاستعلاء والتجبر والشعور بالسيطرة على الرأي العام العالمي مع اطمئنانه إلى التماهي الكلي للحلفاء والداعمين مع سرديته وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية، ومسايرتهم لمصالحه السياسية والعسكرية رغم تعارضها أحيانا مع مصالحهم القومية، وبذلك يصدق فيهم التوصيف القرآني: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: 4). فحالة الاستعلاء المشهودة في السلوك الصهيوني الراهن تؤكد -إلى حد بعيد- أن الكيان الإسرائيلي يدرك أو يستشعر انتقاله من الحالة الوظيفية إلى وضعية يمتلك فيها القرار الذاتي، أو أنه بات يتطلع لذلك ويسعى لتحقيقه فعليا

(1) هنري فورد، اليهودي العالمي، ترجمة أكرم مؤمن، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ط1، 2013، ص14.

(2) المرجع نفسه، ص8.



خاتمة:

إن سنن وعوامل النهوض والسقوط في الأمم متعددة ومتداخلة، وهي تختلف بحسب الظروف والبيئات، وباختلاف بنية المجتمعات وأسس تشكلها، بالإضافة إلى السياقات التاريخية والعلاقات المتحكمة داخليا وخارجيا.

وإذا سلمنا بأن قوة المجتمع الصهيوني تنبع من خارجه فإنه -أيضا- يستمد قوته في الداخل من عوامل ضعف المجتمع العربي والإسلامي والفلسطيني خلال بدايات القرن الماضي، لكن العقود الجارية تنبئ عن تحولات عدة يشهدها المجتمع الفلسطيني من جهة والمجتمع الإسرائيلي من جهة أخرى، وإذا كنا قد استعرضنا صورا من التحولات الجارية في المجتمع الإسرائيلي بفعل الانقسامات التي يتعاظم أثرها يوما بعد يوم، فإن أهم تحول عرفه المجتمع الفلسطيني في العقود الأخيرة هو تصاعد المقاومة الفلسطينية، وترسيخها خيارا استراتيجيا للشعب الفلسطيني، حيث تحولت غزة إلى قاعدة صلبة للمقاومة والصمود بعد تحريرها من الوجود العسكري الإسرائيلي سنة 2005، بينما تراجع دور السلطة الفلسطينية في رام الله وتراجعت شعبيتها إلى حد بات الفلسطينيون يعتبرونها أداة طيعة بيد الاحتلال.

وقد شكل صمود المقاومة الفلسطينية وأعمالها البطولية وآخرها ما حصل في 7 أكتوبر في عملية طوفان الأقصى عامل توهين وإضعاف للروح الصهيونية ولإديولوجيتها المتآكلة، رغم الثمن الباهض الذي يؤديه الإنسان الفلسطيني، هذا الأخير الذي كتب عليه أن يواجه أذى الأقارب والأباعد مما ليس له نظير ولا مثيل، وقد أدرك الإنسان الفلسطيني المقاوم أن الكفاح والجهاد المطلوب لتحرير فلسطين، وتخليص القدس والمقدسات من أيدي الكيان الصهيوني، لا يمكن اختزاله في الكفاح المسلح فقط، بل هو كفاح ونضال شامل في معركة شاملة تضم الجهود الدينية والإعلامية والعلمية والاقتصادية والثقافية، تعمل جيدا على استثمار نقاط ضعف العدو ومكامن الخلل فيه، وتعمل على إضعاف نقاط قوته، كما تستثمر قوة التأثير الديني والحضاري الإسلامي في مواجهة الكيان الصهيوني، ذلك أنه إذا كانت علاقة الصهاينة بالدين تحكمها النفعية والانتهازية، فإن قوة التمسك والالتزام الصادق بالعقيدة الإسلامية، يمنح المسلم طاقة روحية خلاقة، تجعله قادرا على مواجهة التحديات واقتحام العقبات، وتلك هي خصوصية الإنسان الفلسطيني الجديد التي لا تتحدد فقط في الأبعاد التاريخية والقانونية والسياسية، فالإنسان الفلسطيني كما يقول طه عبد الرحمن: «له خصوصية ليست لسواه، إذ أرضه ملتقى العوالم الشهادي منها والغيبي، وإرثه ملتقى الأبعاد الزماني منها والسرمدي»[1].

(1) عبد الرحمن طه، ثغور المرابطة مقاربة ائتمانية لصراعات الأمة الحالية، منشورات مركز مغارب، ط1، 1440/2018، ص19.

لائحة المصادر والمراجع

- تحسين الحلبي، مأزق الصهيونية وأزمة الواقع الإسرائيلي، دار الحياة للنشر، السعودية، 2014.
- دافيد بن غوريون، يوميات الحرب 1948-1949، ترجمة: سمير جبور، مركز الدراسات الفلسطينية، بيروت، د1، 1993.
- عبد الوهاب المسيري، انهيار إسرائيل من الداخل، دار المعارف، القاهرة، سلسلة إقرأ، ط1، 1998.
- موسوعة اليهودية والصهيونية، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1993.
- مقدمة لدراسة الصراع العربي الإسرائيلي، جذوره ومساره ومستقبله، دار الفكر، دمشق سورية، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان،2002.
- الجماعات الوظيفية اليهودية: نموذج تفسيري جديد، دار الشروق، مدينة نصر، جمهورية مصر، الطبعة الأولى، 1422هـ، 2002م.
- عبد الغني عاطف، صدام الأصوليات، نهاية إسرائيل أو نهاية العالم، مطبوعات دار الخيال، الطبعة الأولى، 2000.
- عبد الرحمن طه، ثغور المرابطة مقاربة ائتمانية لصراعات الأمة الحالية، منشورات مركز مغارب، ط1، 1440/2018.
- عبد الحميد بن سالم، مشروع الشرق الأوسط الكبير وتداعياته على المنطقة، مستقبل الحركة الإسلامية ونهاية إسرائيل، دار الخلدونية، الجزائر، طبعة 2005.
- هنري فورد، اليهودي العالمي، ترجمة أكرم مؤمن، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ط1، 2013.